على هامش المعركة !

للأستاذ على الطنطاوى

تحرك الجيش المصرى بعد طول السكون ، وسهر القادة يرسمون الخطط ، ويعدون مناهج القتال ، واستعد الجند وشحذوا السلاح ، وسيقت الكتائب تترا[1] ، فلا ترى إلا جنداً يزحفون إلى ساحة المعركة ، يمشون خائفين وهم الكماة الشجعان الذين ما عرفوا الخوف ، ويتقدمون حذرين وهم الشوس المقادم الذين لا يرهبون الخطر ، يتلفتون لا يدرون من أين يأتيهم هذا العدو المرعب ، الذى يضرب الضربة ، فيهدم الدور ، ويفتح القبور وهو مختف لا يرى ، فإذا وارى الناس موتاهم ، ومسحوا دموعهم ، وحسبوا أنهم نجوا منه ، رأوه قد ضرب ضربته الثانية ، فى مكان قريب أو بعيد ، لا يعلمون كيف تسلل إليه . لا يقف فى وجهه حصن ، ولا يرده بارود ، ولا ينفع معه رصاص ولا قنابل ؛ ولا يدرون من أين يطلع عليهم : أيهبط من السماء ، أم يخرج من الماء ، أم ينبعث من خلال الظلام ؛ يخشون أن يكون قد امتلكهم وهم لا يحسون ، وقبض على أعناقهم ، يمتص دماءهم ، ويزهق أرواحهم ، ويجرعهم كؤوس الموت ... وهم واقفون يحرسون البلاد منه ، ويعدون العدة للقضاء عليه

وفشا فى الناس الخوف ، وعمّ الذعر ، وعلت الوجوه قترة الجزع ، وشغلت الألسنة أحاديث الخطر ، وملأت القلوب رهبة المصير

ولو كانت معركة جنود وعتاد لهانت ولما خاف منها أحد ، لأن هذا الشعب قد تمرس بالمعارك من يوم كان قابعاً فى صحرائه ، يساير الشمس ، ويصاحب الرمال ، ويعانق السيوف ، إلى أن أخرجه محمد ليضىء مصباح القرآن فى المشارق والمغارب ، فينير به الدنيا المظلمة ، والقلوب القاتمة ، وهو إلف المعارك وحليفها ، خاضها وهى تلتهب بنار الهواجر ، عند خط الاستواء ، وهى تتشح بجليد الشتاء على حدود القطب ، مارّده عنها الزمهرير ولا ريح السموم ، وواجه الأعداء من كل لون وجنس ولسان ، فما يخاف اليوم انكلترا ولا يخشى أمريكا ، ولكن هذا العدو أنكى من انكلترا نكاية ، وأخفى مكراً ، وأسرع ضرراً . صغير ولكنه يحط النسر من علیائه ، ويلقى الأسد على مضائه ، ويفتك بهذا الإنسان الذى حكم الجو والبحر ، وسابق فى الفضاء الصوت ، وعاند القدر ، فجاء القدر يحاربه بأصغر جندى من جنوده ، يجندى تحمل الآلاف منه — من هوانه — رجل ذبابة ، وهى لا تشعر بما تحمل .. به (مكروب الكوليرا)

* * *

وسمع الناس باسم (الكوليرا) فذكروا (الهواء الأصفر) وذكروا (الوباء) وما يروى التاريخ من أوزائه وبلاياه .

واغتنم الشيوخ الفرصة ليحظوا بالالتفات إليهم بعد طول الاعراض عنهم ، فحدثوا بما رأوا من فظائع الوباء الذى مر على مصر فى مطلع هذا القرن ، والذى جاز بالشام ، فى الحرب الماضية ، ورأيناه نحن ، وبالغوا ، ووصفوا الجثث التى تكاثرت حتى ما تسعها القبور ، والصراخ الذى علا حتى ما تتحمله الآذان ، والآلام التى ازدادت حتى ما يطيقها بشر . فروّعوا الناس وخوفوهم ، على خوفهم ، فما يستقر بهم قرار ...

وقامت الحكومة ، وانبرى الأطباء ، يهدئون الناس ويطمئنونهم ، ويرجعون إليهم ثقتهم بالعلم ، ويضعون لهم المناهج الصحية ، ويدلونهم على وسائل الوقاية : لا تشربوا الماء إلا من الأنابيب ، وإن شككتم فيه فاغلوه ، ثم صبوا عليه ماء الليمون ، ولا تأكلوا الثمار إلا مسلوقة أو مغموسة بالماء المغلى ، ولا تعملوا كذا إلا بكذا ، ولا تصنعوا كيت إلا بكيت . ثم تمالوا نعطيكم الدواء الواقى ، وما بقى من القضاء إلا من قضاه .. ولكن لكل شىء أسباباً ، ولكل مرض علاجاً ، والذى أنزل الداء هو الذى أنزل الدواء .

ونشرت هذه النصائح فى الجرائد ، وعلقت على السيارات ، وقيلت فى (الإذاعات) ، وخطب بها على المنابر ، وأسرع القارئون والسامعون يعملون بها ، وينفذون ما جاء فيها ، وحسب أولو الأمر أنهم قد أسمعوا الناس ، وعلموهم ، ووقوهم أسباب الردى ، ولم يدر أحد بجيراننا الذين يسكنون (عشة حقيرة) خلال قصور الروضة العامرة ، مبنية من جذوع النخل ، مغطاة بالقش وبأنواع

(١) تترا وتترى أى متتابعين (ومادتها وتر)

اللق[1]، لها باب صغير كأنه فتحة مغارة، لا شباك لها ولا نافذة، ولا ترى الشمس داخلها، ولا يجاوز الضوء بابها ولا يلجها إلا بمقدار. لا ماء فيها إلا ما يستقونه من ماء النهر فيضعونه في الجرار المكشوفة يلغ فيها الكلاب، وتغتسل فيها الآنية، ويسقط فيها الذباب، فتزداد أذى على أذاها، ولا نور إلا نور مصباح زيتي يكاد دخانه التكاثف يطمس نوره الخافت، ولا نار إلا نار هذا الحطب الذي يوقدونه فيها ليطبخوا عليه، فيخرج دخانه من شقوق السقف، يملأ الحي، ويروع الغريب، فيظن أن البيت، (أعني الكوخ) قد احترق ... تنام في هذه (العشة) الأم (الشحاذة) وأولادها والكلب والحمار الهزيل، ومالا يعلمه إلا الله من الفيران والصراصير والخنافس وسائر الهوام والحشرات والدبابات، لا يكلمون أحداً في الحي ولا يكلمهم أحد، قد خرجوا من دنيا الناس ولم يدخل الناس دنياهم. وما دنياهم؟ إن خيراً منها دنيا كثير من كلاب الأغنياء وخيولهم وقردتهم. وليس فيهم من يقرأ جريدة أو يبصر إعلاناً، أو يسمع (راديو) أو يحضر وعظ واعظ، أو خطبة خطيب، فلم يعلموا بما روّع الناس، وصدع خوفه قلوبهم، ولا عرفوا من طرق الوقاية كثيراً ولا قليلا ولو هم عرفوها، لما استطاعوا أن يصنعوا شيئاً.

***

وأمثال هؤلاء الذين لم يدر بهم أحد كثير كثير .. إن نحن وقينا المرض، حملوه هم إلينا، فما أغنى عنا توقينا شيئاً، وإن اعتصمنا بالعلم والمال، فما لهم من علم يعصمهم ولا مال.

ولو كنا صدقنا الحملة يوم حملنا على المرض والجهل والفقر لوجدنا فيهم اليوم صحة تعينهم على احتمال المرض، وعلماً يمكنهم من فهم مناهج الوقاية، ومالا يقدرهم على تهيئة أسبابها. ولكنا أهملناهم فجئنا نتلقى عواقب هذا الإهمال، فإن أصبنا اليوم بهم فياطالما أصيبوا هم بنا، وإن شكونا من أذاهم لنا، فياطالما شكوا هم من أذانا.

وهل شكوا حقاً؟ وهل ترجمنا لهم ألسنة تنطق بشكوى؟ أو أقلاماً تعبر عن نقمة؟ أما أخرسنا بالجوع ألسنتهم، وشللنا بالجهل أصابعهم، وحرمناهم الإنسانية حين جعلناهم حيوانات لا تنطق وما كان الإنسان إلا بالنطق إنساناً!

فانشروا الآن ما شئتم من نصائح، وأذيعوا ما أردتم من مناهج، إن أكثر الناس لا يقرؤونها، وإذا قرؤوها لا يعملون بها لأنهم عاجزون عنها، فوقوهم أنتم أسباب المرض لتقوا أنفسكم واعتنوا بهم ليبقوا في خدمتكم، ولكن لا تمنوا عليهم بفعلكم، ولا تزعموا أنكم أحسنتم إليهم بصنعكم، لأنكم تطيلون حياتهم فتطيلون معها عذابهم، ولو تركتموهم يموتون لكان خيراً لهم (هم) وأبعد للمتاعب عنهم.

أما إن الخطر على هؤلاء الساكنين منا، والخطر على الأمة منهم من مرضهم وجهلهم وفقرهم، أشد من خطر (الكوليرا) فاعملوا على دفعه، واعلموا أنكم إن لم تحيوهم بما في طبيعة المروءة من مساواة، وما في أحكام الإسلام من عدالة؛ أوشكتم أن تخالفوا بفعلكم المروءة والإسلام، وأن تؤيسوهم منهما، وأن تضطروهم اضطراراً إلى التفتيش عن مصدر آخر للأمل لعلهم يظنون (ظناً كاذباً) أنهم واجدوه في الشيوعية، فيكونوا شيوعيين، ويومئذ تكون الطامة الكبرى...

***

وانظروا هذا الوباء المروع، الذي أفزعكم وصدع خوفه قلوبكم، من أين جاءكم؟ تقولون: من الهند ... نعم، ولكن ما جاء به حاج هندي، ولا تاجر ولا سائح، ما جاء به إلا هؤلاء الإنكليز، إنه لا يأتي منهم إلا الكوليرا، والصهيونية، وسورية الكبرى، فاعتبروا، وصدقوا، وانفضوا أيديكم منهم ومن مدارسهم، ومن بضاعتهم، إن الوباء الذي تنشره المدرستان الإنكليزيتان بجوارنا في الروضة، لا يقل عن هذا الوباء الذي تنشره معسكراتهم بجوار القنال، بل ربما كان شراً منه، لأن ذاك يقتل الأجساد، وهذا يفتك بالأرواح، ويمحص بما فيها من خيرات، ويذهب بما تنطوي عليه من حب لمصر وللعروبة والاستقلال، ويجعل من أبنائها أعداء لها، فقاطعوا كل شيء إنكليزي، وأقيموا دونه سداً منيعاً، كهذا السد الذي تقيمونه دون (الكوليرا الانكليزية)، وقفوا عليه الحراس الشداد، معهم الأسلحة المواضي، فلا ينفذ منه شيء إنكليزي قط، لا رجل ولا كتاب ولا فكرة ولا بضاعة ولا كوليرا ولا

(١) اللق: كل ما تلبسه من حقارته: الرسالة. الفضلات